

المحاضرة الثانية عشر

ثالثاً: تفسير حركة التاريخ:

سعى كل من الفلاسفة والمؤرخين منذ القدم لتفسير حركة التاريخ وقدموا نظريات عديدة في محاولتهم لفهم حركة الكون، وبحثهم عن قواعد وقوانين عامة تحكم حركة التاريخ. ومنذ ان رأى سقراط بان الحكمة ليست معرفة الكثير من الحقائق او معرفة فعل شيء ما، بل انها تعني "فهم الطبيعة الحقيقية لوجودنا؟" (واربرتون، ٢٠١٩، صفحة ٢٤)، ومنهم من رأى استحالة ذلك لان الانسان كائن تاريخي ويدور في فلك حركة التاريخ، وهو جزء منه، لذا من الصعب عليه ادراك الطبيعة الحقيقية لوجوده، في حين رأى اخرين بان حركة التاريخ هي السبيل الوحيد لتفسير حقيقة وجود الانسان على الأرض ومسيرته، لكن المشكلة في كيفية دراسة تلك المعرفة والوصول الى حقيقة ملموسة او قوانين عامة تتحكم فيها سواء من خلال جزئيات المؤرخين او عموميات الفلاسفة، بالإضافة الى ما سبق يمكن التقدم خطوة الى الامام اذا حصلنا على إجابة عن السؤال هل ان تلك الحركة عشوائية ام منظمة، تحركها دورات متقطعة غير مترابطة ام انها تسير باتجاه صاعد الى الامام كتطور طبيعي لمسيرة الانسان على الأرض او لتحقيق وعد او نتيجة حتمية؟

حير التساؤل أعلاه كل من الفلاسفة والمؤرخين، ومحاولة الإجابة عنه سطرت مجموعة من النظريات لسنا بصدد إعادة عرضها ربطت بعضها حركة التاريخ بنشوء الحضارات واطمحلالتها وفسر البعض الاخر نشوء تلك الحضارات واطمحلالتها بدورة حياة الكائن الحي كمحاولة لجعل المؤرخ طبيباً وفقاً لمنطق العلوم الطبيعية. وربما تمثل نظرية التعاقب الدوري لابن خلدون (البداوة التحضر التدهور) وتكرارها بصيغة الفيلسوف الإيطالي جيوفاني باتيستا فيكو (مرحلة الالهة، مرحلة الابطال، مرحلة البشر)، (ناجي، ٢٠٠٨، صفحة ٥٩)، امثلة شاخصة عن دورات التاريخية متتابعة بانتظام (نشوء الحضارات وانهارها)، دون سيرورة او استمرارية. وربما تمثل نظرية التحدي والاستجابة لتوينبي القول بان تلك الحركة عشوائية وهي رد او استجابة للتحديات التي تواجه البشرية، وتجتمع النظريات الثلاث بانها لا تعد بسعادة او نهاية حتمية.

اجمع فلاسفة الأديان ومريديها منذ القديس اوغسطين وبوسويه والكتابة التاريخية الكنسية بان حركة التاريخ هي "ثمرة للعناية الالهية" او "ان التاريخ مسرحية يكتبها الله (العناية الالهية) ويمثلها الانسان"، وهو

ما كان شائع في تاريخ العصور الوسطى (عبد الجبار ناجي، ٢٠٠٨، ص ٥٨-٥٩)، واتفق فلاسفة الإسلام على ان الروح التي تحرك عجلة التاريخ، وتحدد مصائر الشعوب، هي مشيئة الخالق عز وجل "له في خلقه شؤون"، وليس لبني البشر قدرة على تغيير تلك المشيئة، ولكن اذا تأملنا في الامر واستحضرنا السؤال الذي اثير في تراثنا الإسلامي حول هل ان الانسان في هذا الكون مسير ام مخير؟ وفتوى الامام الصادق (عليه السلام) في الامر، بالقول: "لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين" (موسسة السبطين العالمية، ٢٠٠٧) نجد ان هناك مجالاً للحركة يميناً وشمالاً داخل تلك المشيئة بما ينسجم مع قوله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (القرآن الكريم، ٢٠١٤، صفحة ٥٩٥) او (وتلك الأمثال نضربها للناس لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (القرآن الكريم، ٢٠١٤، صفحة ٤٤٨)، والسؤال ما هو الهدف من التفكير او الهدف الذي يتضمنه مفهوم العبرة في القرآن الكريم؟ يتفق التفسير الديني حول النهاية الحتمية للكون يوم القيامة وإرادة الخالق والسعادة والفلاح لمن زكاه والخيبة والخسران لمن دساها... الخ اي الوعد بالآخرة قائم والسيرورة وتطور البشرية الصاعد الى الامام قائم ايضاً رغم الاختلاف في الجزئيات، وإذا تأملنا فيما سبق يكمن القول بان النظرية الدينية من الممكن ان تتفق مع نظرية المعرفة وتبتعد عن كونها نظرية مسلمات على الرغم من عدم وجود اتفاق حول الامر، من خلال استثمار تلك الحركة في الآيات القرآنية أعلاه، وهو ربما عكس ما طرح عن النظرية الدينية في تفسير حركة التاريخ البشري التي تتمحور حول الجبرية.

ترى مثالية هيغل بان محرك التاريخ شيء مجرد او قوة تتحرك الى الامام، واثار اقدامها هي احداث التاريخ، ومادتها هي التاريخ، لكن هذا التاريخ او هذه الاثار لا يمكن فهمها وفهم ترابطها الا بعد ردها الى هذه الروح او هذا العقل الكلي الذي يتقدم شيء فشيء، طويلاً فيه كل ما نراه ويسير حتى يتحقق في النهاية، وعلى هذا فالتاريخ والحجر والبشر والناس والأمم والشعوب والاحداث ما هي الا خلايا نشأ وتولد وتحيا وتموت وتنحل وترتبط في جسم واحد لا نعيه لأننا جزء منه، يذهب الى غايته الأخيرة، ويسميه الروح او العقل الكلي روح مثالية تسير تطور البشرية، وحتماً ستنتهي الى العدالة والسعادة المنشودة، وربما تكون تلك الروح او الجوهر المقصود هو الله عز وجل. تتفق الماركسية على الحركة وتحفظ بفكرة السيرورة والتقدم، لكنها تنفي ان يكون المنفعل هو التاريخ، والفاعل هو الروح المجردة، فالتاريخ حي سيد نفسه احداث وفعال ووقائع، ولا يكون العقل والفكر الا انعكاس لها، لهذا تسمى الماركسية بانها مادية، لكنها تتفق مع هيغل بانها

تؤمن بالوصول الى نهاية او غاية أخيرة سيتحقق فيها التاريخ (الشيوعية) او (وعد السعادة وفقاً لكانت) (حدجامي، ٢٠١٨). لكن ماركس ذهب باتجاه صراع الطبقات وجشاعة الروح البشرية التي ستنتهي حتما الى سعادة البشرية عندما تصل المادية الى الذروة بتحقيق الشيوعية، وهي كأنها عودة الى المشاعة البدائية. على الرغم من النظريات العديدة في نشوء الحضارات وازمحلها ومسيرة التاريخ البشري منذ القرن الثامن عشر، كل ما استطاعوا تحقيقه وفقاً محمد حبيدة هو فصل التاريخ عن اللاهوت وتحويل موضوعاته من المثل والاخلاق والدين الى تاريخ الملوك والاباطرة والدول والتاريخ السياسي والثورة الفرنسية مصداق على ذلك (حبيده، ٢٠١٩، صفحة ٢٩).

تتميز التاريخانية او النزعة التاريخية "المعرفة التاريخية" عن ما سبق من النظريات والمذاهب الفكرية التي تحاول تفسير التاريخ، بانها المذهب الذي يرد كل شيء الى التاريخ بما يتضمنه من احداث ووقائع، لكنها لا تعد بنهاية سعيدة، او نهاية تتحد وتتوافق وتتواطئ فيها الاضداد، وبالتالي كل نظرة ترد ما يقع وما يحصل للناس، ويسعى الى ان لا نفهم احداث الناس وافكارهم لا بردها الى فترات التاريخ التي يحيونها، هي نزعة تاريخانية يصفها عادل حدجامي بانها هيغلية دون وعد بسعادة تجمع الاضداد في الأخير، لكنه يضيف بان هذا فقط في التصورات التي تعتقد بربط الفلسفة بالتاريخ (حدجامي، ٢٠١٨).

على المتخصص في التاريخ التمييز بين التاريخية كطريقة لدراسة التاريخ والتاريخانية كمعرفة اذ يميز عبد الله العروي في كتابه مفهوم التاريخ بين "التاريخية" و"التاريخانية"، ويرى بان التاريخية هي طريقة للبحث أي منهج البحث التاريخي الصارم، اما الثانية فهي التي تقرر حتمية التطور، واذا اعترفنا انها توجد بمقدار مختلف في مدارس التاريخ، كأننا نقول ضمناً ان التاريخية كمنهج بحثي تؤدي حتماً الى التاريخانية كاتجاه فلسفي، ونستطيع ان نقرر ان التاريخانية هي فلسفة كل مؤرخ يعتقد ان التاريخ هو وحده العامل المؤثر في أحوال البشر، بمعنى انه وحده سبب وغاية (العروي، ٢٠٠٥، الصفحات ٣٤٨-٣٤٩)، لذا تفرعت التاريخانية على مستوى الاختيار الفلسفي الى اتجاهين الأول تقليدي يتكلم فيه المؤرخ كلام العارف المطلع على اسرار الكون، وهو ما يتفق مع التفسير الديني اعلاه، والثاني وهو الذي يهمننا "انسي دنيوي موضوعي" يقول فيه المؤرخ ما يستطيع ان يقوله مخلوق محدود القدرات كما يرى العروي، لكنه رغم ذلك يرى بان التاريخ شأن

موضوعي، لأنه خارج ذات الباحث، والباحث يكون موضوعي بقدر ما يقدم منطق ما يدرسه على منطقته هو، لذا قيل ان المؤرخ اذا يؤرخ عليه ان يعتمد عدم الانتماء.

يفرق العروبي على مستوى المنهج بين رانكه الذي يعده تاريخانياً وفوستل الذي ينعته بالوضعاني وأكتن الذي ينعته بالليبرالي الذين يصفهم بأعلام التاريخ النقدي الاحترافي، لكنه يرى بانهم جميعاً على اختلاف مدارسهم يهتمون بالجزئيات، ويخضعون لمنطق الحقبة المدروسة ويتحاشون الاحكام الشخصية اثناء البحث، ويعترفون بحدود المعرفة التاريخية في اطارها البشري. ويتساءل اين توجد نقطة الاختلاف بينهم ويجب بالمغزى والقصد، فالتاريخاني هو من يدعي انه يدرك مباشرة غاية التاريخ في عملية ذهنية تشبه الكشف في حين ان الوضعاني لا يفترض أي مغزى، ويقول ان هدف التاريخ هو معرفة التاريخ فقط، اما الليبرالي فهو مؤمن ان موضوعيته، اثناء البحث لا تمنعه في اخر المطاف من اصدار حكم أخلاقي على حوادث الماضي، ويرى بان المؤرخون المحترفون اجمعوا على الجانب المنهجي من التاريخانية، بحيث لا يتصورون عملاً تاريخياً حقيقياً الا في اطار ذلك المنهج، فالبحث الذي يقوم به المؤرخ المحترف يبقى على دقته وتقنيته، برانياً عن الانسان لأنه يدرس التاريخ كموضوع، كجسد جامد. وهذا هو المكسب المجمع عليه فيما سمي بثورة النزعة التاريخية، لكن التاريخاني يرى ويؤكد: انه هذه خطوة أولى فقط، يجب ان تتبعها خطوة ثانية، والا بقيت عقيمة، أي بعد وصف التاريخ كمادة يأتي دور التضمين، أي الادراك الكشف عن المغزى، وتحويل البراني الى جواني حتى يصبح المدروس جزءاً من ذات الدارس، والا ما كان إدراك ولا تاريخ، وانما مجرد تصنيف للماديات. والفهم لا يتم الا في إطار تلك العملية المتواصلة التي تمكن البشرية من تعميق، وعيها بنفسها لان المعنى الذي يجب ادراكه هو في الحقيقة حاضراً مسبقاً، باعتبار ان ذهن المؤرخ، ليس سوى محصلة كل التطورات التاريخية (العروبي، ٢٠٠٥، الصفحات ٣٤٩-٣٦٠).

يستطيع المؤرخ في ان يربط الاحداث فيما بينها، وان يتمثل كل حدث على حدة، ويرى ان ما يجري في ذهن المؤرخ على غير صورته الحقيقية، اذ تغفل النقطة الجوهرية، وهي ان التاريخ لا يكون تاريخاً الا بعد ان يحال الى مفهوم، والمفهوم في ذهن المؤرخ، شان خارجي ذاتي في آن سلسلة احداث مترابطة وكلها حاضرة، فيستطيع الذهن ان يميز كل حدث كحلقة ضمن سلسلة، اذ لم يتحقق التمثل على هذه الصورة لا يكون تاريخ، وانما وصف لأشياء متناثرة، أي علم موضوعي للماديات. (وهو ما يوضح كيف ساعدت

التاريخانية في نشأة العلوم الاجتماعية الأخرى، بالكشف عن التاريخ كموضوع ونسق، فالعلوم الاجتماعية تصف وتصنف لإظهار التواتر، وبذلك تنشأ المقارنات ذات البعد التاريخي للموضوع قيد الدراسة، وتمهد الطريق لتلمس مستوى ونوع التغيير الحاصل وتحقق الإنجاز (العروي، ٢٠٠٥، الصفحات ٣٤٩-٣٦٠).

ومما سبق يمكن القول بان التاريخانية ليست احدى الفلسفات التأملية التي تبحث عن العموميات، وحتى وان كان ذلك على حساب التاريخ، وتشويه المعرفة التاريخية بل هي منطق التاريخ، اذ يعي نفسه مرحلة تتوج مراحل سابقة، متسلسلة مكسب يغني مكاسب أخرى مثل ابداع الرموز واختراع الحروف، وتسجيل الاخبار، والنظر فيها واستخلاص العبرة منها. أي اما اعتبار التاريخ كمفهوم الواعي بذلك وهو التاريخانية او الاكتفاء بالوصف دون الاهتمام بالمغزى وهو ما يدفع الى السؤال اين مغزى التاريخ وعبره ان لم تكن داخل التاريخ؟ (العروي، ٢٠٠٥، الصفحات ٣٤٩-٣٦٠).